قراءة في نص

بدوي في أوروبا

١.. جمعة حماد

هذا العمل الأدبي الجيد يقع بين الرواية والسيرة الذاتية فالبطل في الأصل هو جمعة حماد، ولكنه جمعة حماد بعد أن طرأ عليه تغيير وتكييف يناسب فن الرواية، الذي زار ألمانيا وتعرف وجوهاً من عادات القوم وسلوكهم وقيمهم إنما هو جمعة حماد، أما الذي رافق الآثاري الألماني الملقب بعبدالله، سنة كاملة، يعمل معه في البحث عن الآثار إنما هو بدوي حقاً غير أن الكاتب ألف منهما شخصية روائية واحدة.

دراسة نقدية

بقلم الدكتور:

عودة الله القيسي

نقول إلى جانب ذلك: إن البطل هو **جمعة حماد**، لأن بدوياً لايحمل إيديولوچية «عقيدة» لايستطيع أن يمسك نفسه أمام مغريات الغرب، ولاسيما إغراء النساء، لأن من طبيعة الأشخاص الذين لايحملون إيديولوچيات أن تنهار عاداتهم أمام الإغراء، أما الذي يعتنق عقيدة يفسر بها كل شيء ويعامل كل شيء على أساسها فهو الذي يمكن أن يقاوم المغريات، كما قاوم الشاب أحمد رضوان «من شخصيات القصة» مفاسد الغرب ومغرياته، وهو طالب متدين يعتنق الإسلام أيديولوچية، وكما قاومت الفتاة ـ مريم ـ التي كانت تدين بالإسلام عن عقيدة ووعي، وهي فتاة ألمانية اعتنقت الإسلام عن وعي، أما **جمعة حماد** فمعروف أنه رجل يعتنق الإسلام عقيدة عن وعي يفسر بها أشياء الحياة، ويتعامل معها على أساسها، ولذلك فهو البطل الحقيقي في هذه الرواية.

(٢)

إن المرء ليشك في كرم الألماني عبدالله الذي غمر به البدوي، وهل عند القوم من الكرم ما يجعل مثل هذه الرواية صادقة؟ لقد أخذ الألماني عبدالله البدوي سويلم من مضارب عشيرته إلى ألمانيا، وكان ينزله في أفخم الفنادق ويهيئ له أفخم الحفلات وعندما عاد ملأ له ثلاث حقائب بالفاخر من الملابس للعائلة وللأطفال، هذا فضلاً عن أن أجرة الطيران ذهاباً وإياباً كانت من جيب الألماني الملقب بعبدالله.

(٣)

لم يطل الكاتب في وصف الألماني عبدالله ومن جاء معه من السيّاح حتى كأن مهمتهم لم تكن البحث عن الآثار يمضون في ذلك بضعة أشهر، وإنما هي أكل منسف من اللحم والأرز عند البدو وثم اصطحاب ـ سويلم ـ «بطل القصة» إلى ألمانيا كان يفترض أن يصور الكاتب أنهم مكثوا أشهراً يبحثون عن الآثار وعندما قرروا العودة اصطحب الألماني عبدُالله، البدويَّ ـ سويلم ـ معه وسويلم هذا هو رفيقه لمدة سنة في البحث عن الآثار، قبل أن تأتي رسالة عاجلة إلى الألماني عبدالله، سافر على أثرها إلى ألمانيا، دون أن يخبر سويلم بمضمون هذه الرسالة.

(٤)

استطاع الكاتب أن يصور لنا حياة الغرب بما فيها من انحلال ولاسيما في موضوع المرأة، فكأن الفتيات غير المتزوجات كلهن

يبحثن عن رجل وسهرة مع هذا الرجل ثم قضاء بقية الليل في فراشه.

ولكن الكاتب لم يجعل هذا الأمر قدراً لاينجو منه أحد من الناس، ولذلك كانت ـ مريم ـ الفتاة المسلمة نقية طاهرة ترفض هذه الحياة المنحلة، وهذه لفتة تحسب للكاتب..

فلابد من أن نجد العفة والاستقامة في أكثر المجتمعات انحلالاً، ولكن على وجه استثنائي لايظهر فيه إلا القليل أو النادر.

(٥)

كان سويلم قد حضر أكثر من حفلة رقص، ولكنه لم يشارك فيها، أما في المرة الأخيرة التي تناولوا فيها العشاء ثم رقصوا.. جعل الكاتب سويلم يرقص مع سونيا بإجبار الجميع له على ذلك: «لقد كان سويلم يمضغ لقمة وكانت سونيا تقرب رأسها من رأسه حتى ملأت رائحة العطر صدره» وسويلم يوشك أن يفقد وقاره شيئاً فشيئاً، ووقفت سونيا مرة أخرى لتحرك تلك الآلة، وبدا ظهرها عارياً كما كان أول مرة أبيض كالثلج، وبدأت الآلة تدق ضرباتها الموسيقية الرتيبة، وفجأة دوى ضحك الجماعة من جديد، فقاموا كلهم فيما عدا المدير

■■ تؤكد القصة على أن من يمتلك عقيدة يفسر بها كل شيء.. ويتعامل بها مع الموجودات.. هو الذي يمكنه مقاومة المغريات.

وصاحبته، وقفوا كلهم، عبدالله وتلك المرأة التي تجلس جانب سويلم، وأخت عبدالله الثانية ورفيقها ـ وقفوا كلهم ليحملوا سويلم حملاً وهم يضحكون وعبدالله يقول له: قم ارقص مع سونيا»ص٢٢٧ ولم يرقص سويلم وإنما ضمته المرأة إلى صدرها ولكنه تأذى كثيراً من هذا الموقف «فأحس بشبه غيبوبة، لايذكر معها ماحدث» ص٢٢٩.

والحقيقة أن هذا الموقف جاء اعتباطاً، فليس في أحداث الرواية مايدل على أن عبدالله سيجبر ضيفه، ولا أن النساء الأوروبيات من الوقاحة بحيث تراقص الرجل رغماً عن أنفه.

لقد افتعل الكاتب هذه الحادثة «افتعالاً»، لكي يهيئ الجو لعودة سويلم إلى أهله، فلم يعد يطيق الحياة في ألمانيا بعد الذي حدث، وكان ميسراً للكاتب أن يجنب البطل هذا الموقف المفتعل بأن يقرر أن حياة البطل استمرت أسبوعاً أو أكثر في مثل هذه الظروف التي تراقص فيها النساء الرجال، ثم

يقضين بقية الليل معهم، ولكنه ظل نفوراً من ذلك، وبعد ذلك اشتاق البطل إلى أهله وملّ هذه الحياة فطلب العودة، إن صورة المضيف الممتازة التي حظي بها الألماني عبدالله من خلال تعامله مع البطل كان يجب ألا تشوهها هذه الفعلة الشنعاء الأخيرة، لقد عثر الكاتب عثرة واضحة بإيراد هذه الحادثة التي رقّصَت فيها سونيا سويلم على الرغم منه، حتى أصيب بالدوار، ولم يدر ماذا حدث بعد ذلك.

(٦)

في وداع سويلم لأسرته وعشيرته لم يجعل الكاتب الموقف طويلاً، تكثر فيه عبارات الوداع، وتظهر صور بعض الناس ـ ولا سيما الزوجة ـ الذين لم يطيقوا الوداع، ذلك.. لأن هذا الموقف موقف غريب عليهم وكأنه حدث من الأحداث بل هو عندهم كذلك، فالاختصار في مثل هذا الموقف ضار بإبراز الحدث باعتباره حدثاً مهماً.

(٧)

في مكان ما وهم يركبون الطائرة هبت عاصفة ثلجية، فجعلت الطائرة تعلو وتهبط، وفي هذه الحالة كان سويلم دون سائر الركاب في حالة اطمئنان، لأنه يؤمن بالقضاء والقدر، وعندما عرف عبدالله الألماني الطمأنينة التي تخيم على سويلم «أخذ عبدالله يحلل هذه الظاهرة في سويلم، ويذهب إلى الأسباب البعيدة والقريبة، وإلى جذور الأشياء التي نمت وترعرعت فجعلت مثل هذا البدوي على مثل هذه الصلابة في اعتقاده» ص١٣٦.

ونقول: من أين لعبد الله أو غيره في مثل هذه اللحظات الحرجة أن يحلل ظاهرة الطمأنينة عند سويلم، إن الجميع في حالة رعب لاتسمح بالتفكير، ولو قال الكاتب: إن عبدالله استرجع هذا الموقف عندما اطمأن بهما المقام في الفندق وأخذ يحلل.. لكان ذلك أمراً معقولاً.

ومثل هذا قوله والطائرة تضطرب في الجو: «وصرخت امرأة وهي تضم طفلها إلى صدرها كأنما لتخنقه، ووقف عبدالله ليمسك بالمرأة التي من الواضح أنها فقدت عقلها رعباً، وقد تكتل الركاب من حولها حتى خيل لسويلم أن الطائرة بدأت تفقد توازنها مع حركة الركاب» ص١٣٧.

نقول: لايعقل أن يترك الركاب أماكنهم ليتجمعوا حول تلك المرأة، والطائرة تضطرب، تعلو وتهبط، لأن همّ كل راكب في هذه الحالة أن يثبت نفسه في مقعده، فإذا تركه وأراد أن ينتقل إلى موضع آخر، فلا بد أنه سيقع وسيتهشم أو يتحطم على أرض الطائرة أو على نواتئ المقاعد.

(٨)

■■ هنات لغوية:

لاتخلو الرواية من هنات لغوية نذكر منها:

ـ «ومن بعيد أقبل شخص يجر خروفاً يطلق صوتاً كأنما يودع به القطيع، ومن الستار الذي يفصل الضيوف عن بقية البيت لمع سيف وأهوى رجل على رقبة الخروف...» ص١٤

ونقول: هذا الستار يسمى ـ الساحة ـ ونقول: إن الناس لايذبحون بسيف، وإنما بآلة أخرى تسمى السكين أو «الشبريّة».

ـ ويقول: «وأيكون هؤلاء الذين تقولين عنهم كفار أجرأ مني على خوض الأخطار» ص٢٤

وأقول: الصواب: «أوَ يكون» لأن همزة الاستفهام تسبق واو العطف، لأن لها الصدارة.

ـ ويقول سويلم: «والدنيا قربت لبعضها يا جماعة» ص٢٤

والصواب: والدنيا قربت، بعضها لبعض.

(٩)

وأخيراً.. فقد استطاع الكاتب أن يقدم عملاً إسلامياً ناجحاً أبرز فيه بعض عادات الغرب وقيمهم التي لا تتفق وعاداتنا وقيمنا نحن المسلمين، ولا سيما في مجال العلاقة بالمرأة، وجعل الكاتب سويلم ـ البدوي ـ ينفر منها ولا يقبل عليها.

حفاظاً على عاداته وقيمه التي هي عادات وقيم عربية بدوية، كثير منها إسلامي، وقليل منها جاء عن طريق الظروف الصعبة التي يعيشها البدو.